مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 127- 152

"إقليم توات من منظور الرحالة و الكتاب المغاربة ما بين القرنين 8و12هـ / 14 و18م"

"Touat region from the perspective of Moroccan travelers and writers from the 8th to 12th centuries of immigration/ 14th to 18th"

ط د.ابلالي ليلى[1*]، د. أحمد بوسعيد[2]

[1]جامعة احمد دراية –أدرار (الجزائر)، Bla.leila@univ-adrar.edu.dz

[2]جامعة احمد دراية –أدرار (الجزائر)، ahm.boussaid@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/07 تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص : يتمتع الجنوب الغربي الجزائري بمميزات ثقافية وتاريخية وأخرى حضارية جعلته يتبوأ مكانة هامة في تاريخ الجزائر عبر العصور، ومن أهم مناطقه التي اكتست هذه الميزة إقليم توات (ولاية أدرار حالياً)، إذ تميز هذا الإقليم بمكوناته الجغرافية والتضاريسية الصحراوية ما جعله محط جلب العديد من الكتاب والرحالة المغاربة أمثال: العلامة ابن خلدون، ابن بطوطة، ليون الإفريقي، ابن الدين الأغواطي وأبو سالم العياشي الذين أفردوا له وقفات في مؤلفاتهم التاريخية المشهورة. فهؤلاء يعتبرون من القلة الذين استطاعوا أن يسجلوا ملاحظاتهم حول إقليم توات المغمور وسط الصحراء خلال العصور التي عاشوا فيها حتى تحولت إلى مصدر مهم لكل باحث في تاريخه، حيث وُفقوا في تدوين أحاديث تأكدوا من صحتها ورحلات قاموا بها وسردوا مشاهداتهم عنها؛ واصفين خصائص الإقليم البشرية والجغرافية، مبرزين دور سكانه في مجالهم الجغرافي.

الكلمات المفتاحية: إقليم توات– ابن خلدون– ابن بطوطة– ليون الإفريقي- العياشي.

The summary: The Algerian south-west possesses cultural, historical and other cvilizational features that have given it a significant role in Algerian history for many centuries, and the region of Touat is one of the most important location that has made this feature. The geographical and geographical components of the desert distinguish this region, making it the subject of numerous writers and travelers, including : Alma Ibn Khaldoun, Ibn Battuta, L yon A African, Ibn Eeddine Eel Eeghatii and Abu Salem el Aichi, who have made endowments to him in their famous historical works. They were among the few who could use them to write about the territory's the history as a whole .

* المؤلف المرسل

Keywords: Touat- Ibn Khaldoun- Ibn Battuta- African Lyon- Ayashi.

1 . مقدمة:

وفق ما سبق تهدف المداخلة إلى تتبع عدد من الرحلات والكتابات المغاربية المؤلفة حول إقليم توات الشاسع ما بين القرنين 8و12 هـ(14و18م)، وبالتحديد ما دونه ابن بطوطة في رحلته، وما ذكره ابن خلدون في ديوانه، وما عاينه الحسن الوزان والعياشي وأخيراً ابن الدين الاغواطي في سفرهم؛ إذ لا يمكن للباحث في فترة العصر الوسيط أو الحديث أن يستغني عن كتابات هؤلاء، و ما حوته من عادات السكان و ممارساتهم اليومية أو الموسمية وطبيعة الأرض الصحراوية ومسالكها ودروبها وخصائصها المتعلقة بالمناخ والغطاء النباتي وغير ذلك من المواصفات. وستتدرج المداخلة في التعريف بالإقليم ومقاطعاته ثم عرض نظرة الرحالة والكتاب المغاربة له، لنصل إلى استخلاص الصورة العامة لإقليمنا في عيون هؤلاء.

* فكيف وصف الرحالة و الكتاب المغاربة إقليم توات من خلال كتاباتهم ؟

* ما أهم القضايا التي شغلت انتباههم أثناء رحلتهم إليه؟

*ما القيمة العلمية لما كتب هؤلاء الرحالة عن إقليم توات؟

الفرضيات:

-انتشار الإسلام في غرب السودان وظهور ممالك إسلامية عامل مساعد على زيادة الرحالات و الاكتشافات نحوها.

-الاهتمام بواحات توات والطرق المؤدية إليها نتيجة حتمية للنهضة العلمية والانتعاش الاقتصادي الذي عرفته.

وقد اعتمدنا على المنهج التاريخي والوصفي للوقوف على قيمة ما كتبه الرحالة السابقة أسماؤهم عن الإقليم مابين القرنين 8و 12الهجريين خصوصا وأنها فترة متقدمة لم تحظى جميع أقطار العالم بالكتابات عنها.

2.التحديد الجغرافي لإقليم توات ومقاطعاته.

1.2 الإطار الجغرافي و التاريخي لتوات:

يمتد الإطار الجغرافي للصحراء الجزائرية ككل ضمن الصحراء الإفريقية الكبرى، الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً و من جبال الأطلسي شمالاً إلى بلدان الساحل جنوباً.

ويعد إقليم توات الواقع ضمن الصحراء الجزائرية من أهم المناطق الصحراوية قديما وحديثاً، غير أن آراء المؤرخين القدامى تباينت بشأن تحديد موقعه تحديداً دقيقاً لما تضمنه من مواقع متميزة وقصور موزعة هنا و هناك.

فهو يقع في غرب الصحراء الكبرى أي جنوب غرب الجزائر؛ يحده من الشمال واد الساورة الذي يربطه بحواضر المغرب الاوسط وكور المغرب الأقصى شاقاً مجراه بمحاذاة العرق الغربي الكبير؛ ومن الجنوب رق تنزروفت المنبسط نحو اصقاع بلاد السودان، وشرقا واد أمقيدن وغربا عرق شاش(بوسعيد، 2012/2011، صفحة 2)، فهو بذلك يمتد من "تبلكوزة" إلى "فقارة الزوا"موزع على ثلاث جهات محلية في شكل هلال من الشمال إلى الجنوب شاسعة ومتباينة جغرافيا وهي تينجورارين (قورارة) في الشمال و توات الوسطى في الوسط وتيديكلت إلى الجنوب الشرقي.

يعتبر من أقدم المناطق عمارة في الجنوب الجزائري حسب ما تؤكده الكثير من الآثار والمصادر التي تذكر أن الفينيقيين والرومان استخدموا طريق توات في علاقاتهم التجارية مع الجنوب ولهذا السبب استقر اليهود مبكرين بها. (Bernard, 1994, p. 2)

وورد ذكر إقليم توات في كتابات بعض المؤرخين العرب والعجم سواءً بطريقة مباشرة مُستهدفَة أو غير مباشرة ضمن إطار عام يشمل المنطقة من أمثال

"هيرودوت" الذي يُنسب إليه أقدم وصف له؛ حيث ذكر أن تعمير هذا المكان من الصحراء يعود إلى قبائل الجيتول البربرية التي سكنت قورارة.

ومن العرب يعتبر الرحالة "ابن بطوطة"(التعليق رقم:1) والعلامة "ابن خلدون"(التعليق رقم: 2) أقدم من تعرض لذكر كلمة توات؛ فيذكر "ابن بطوطة" في رحلته أنه خرج من "تكدا"(التعليق رقم:3) متجها إلى "توات" يوم الخميس 11 شعبان سنة (754هـ/1354م) في رفقة كبيرة، وذكرها العلامة ابن خلدون في ديوانه في حديثه عن مواطن "ذوي عبيد الله" من القبائل المتوطنة في الجزائر إذ يقول: « فمواطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن القبلة، و تنتهي رحلتهم في القفار إلى قصور توات و تنمطيت (تمنطيط) وربما عرجوا إلى ذات الشمال إلى تسابيت وتوكرارين، وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان ...». (ابلالي، 2013/2012، صفحة 2)

تمتاز تضاريس إقليم توات بالرتابة والاستواء فهو أقل تعقيداً، ويعتبر العرق المظهرالتضاريسي الغالب على سطحه؛ والمتمثل في السهول الرملية مثل العرق الغربي الكبير وعرق شاش في الجنوب الغربي وعرق الراوي شمال تسابيت.

ولأن الوسط الطبيعي للصحراء له انعكاس مباشر على مناخها فهو يتميز عموماً بالجفاف نظراً للارتفاع الكبير لدرجة الحرارة وندرة الأمطار وعدم انتظامها؛ فقد تمر سنتان أو ثلاثة دون هطولها وغالباً ما تكون في صورة وابل يرافقه رعد وبرق كثيراً ما تكون لها عواقب وخيمة على الإنسان و الأرض الفلاحية.

ويتعرض الإقليم إلى هبوب رياح جافة هوجاء جنوبية تعرف ب "شهيلي " (دعاشي، 2014-2015، صفحة 6)، أما الرياح الخطيرة والمثقلة بالرمال والغبار تسمى بالفرنسية "سيروكو" (siroco) (الرياح الجنوبية الشرقية) تكون في العادة ساخنة وهي معرقلة لجميع أنواع النشاط البشري وتمحو معالم الطريق في غالب الأحيان. (ابلالي، 2013/2012، صفحة 13)

هذا و توجد سبخات كبيرة كانت بمثابة مصبات لأودية قديمة؛ كسبخة بوده وتيميمون و تنمطيط وغيرها؛ ولقلة الموارد المائية السهلة الاستغلال فاستخراج الماء في الإقليم يكون بواسطة نظام الفقارات (التعليق رقم:4) الذي يتطلب مجهوداً كبيراً لوقوع الماء في طبقة عميقة من الأرض.

أما الغطاء النباتي فتوجد أشجار النخيل الغذاء الأساسي للسكان (التمر) وزراعة القمح والشعير والحناء التي اشتهرت بها، حتى اصطلح على بعض قصورها ب"توات الحناء"(ابن الدين، 1830، صفحة 91)إضافة إلى نباتات أخرى بمثابة كلأ للأغنام و الجمال مثل السبط والدمران و حشائش السفانا وغيرها.

عموماً الإقليم منطقة عريقة مترامية الأطراف تُعرف بأنها (أرض ذات سباخ كثيرة الرمال والرياح لا تحيط بها جبال ولا شجار) ممتدة بين معالم طبيعية واضحة.

2 2.3 -مقاطعات الإقليم:

ينقسم إقليم توات تاريخياً إلى ثلاثة مناطق اثنو ثقافية تشترك في العادات والتقاليد يجمعها تواجُدها على هضبة تادميت (شمال عين صالح) الخزان الكبير للمياه الجوفية وهي:

1- منطقة تيكورارين أو القُورارة: وتعرف تاريخيا أيضا ب**تينجورارين** تقع شمال الإقليم، يحيط بها العرق الغربي من جهة الشمال وهضبة تادميت من الجنوب، ومن الشرق الحوض الشرقي لواد الساورة؛ توجد بها سبخة تينجورارين الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وكذلك بعض الأودية الجافة مثل وادي مقيدن ووادي صالح؛ تتشكل من مجموعة قصور وسط الكثبان الرملية أهمها قصور أوقروت، قصور تنر كوك، قصور تسابيت قصور تبلكوزة، قصور تيميمون وغيرها، و قد كانت حاضرة بقوة في كتابات المؤرخين للفترة المدروسة.

ومدينة تيميمون تعتبر قاعدة قرى قورارة وعاصمة المنطقة لما عرفته من نشاط اقتصادي وتقدم عمراني وتجمع سكاني عبر العصور؛ ويقطن المنطقة عموماً قبائل مختلفة الألسن فبعضهم يتكلم اللسان العربي الدار جي وبعضهم يتكلم اللسان البربري (الزناتية). (ابلالي، 2013/2012، صفحة 8)

2- منطقة توات الوسطى أو توات: وهي قاعدة اضلاع مثلث توات الكبرى ومصدر التسمية الجامعة؛ تنحصر ما بين قورارة من ناحية الشمال وتيديكلت من الجنوب الشرقي، تشتمل على سلسلة مترابطة من القصور تبدا من اعالي قصور تسابيت- عريان الراس- شمالاً إلى غاية انتهنت "رقان" جنوباً (بوسعيد، 2012/2011، صفحة 9)على مسافة 200 كلم تقريباً، أي على طول الجهة الغربية لهضبة تادميت؛ من أهم قصورها: قصور بوده، قصور تمنطيط، قصور تيمي، قصور فنوغيل وغيرها.

3- منطقة تيديكلت: وهو مصطلح بربري يعني راحة اليد(الكف) تمتد من مدينة "أولف" إلى مدينة "فقارة الزوا" بدائرة عين صالح شرقاً على مسافة تقدر ب150كلم، وهي بهذا تقع في الجهة الشرقية لتوات الوسطى ؛ أي عند سفح صخري مرتفع من هضبة تادميت.

وتحوي تيديكلت بدورها مجموعة من القصور موزعة على سطح منبسط قليل التلال ومركزها مدينة أولف (تيدكلت الغربية) حسب ما أشار ابن الدين الاغواطي(التعليق رقم:5)، إلا أن مدينة عين صالح أو (تيدكلت الشرقية) تعتبر العاصمة التاريخية للمنطقة ؛ حيث مثلت عبر تاريخها الطريق الذي تمر منه القوافل التجارية المتجهة نحو تونس وطرابلس ونقطة تجمع ومعبر لحجيج توات ككل و بلاد التكرور. من أهم قصورها: الركينة، زاوية حينون، قصور تمقطن، قصور أقبلي هذه الاخيرة التي عُرفت كمحطة لعبور الحجاج القادمين من بلاد السودان وسوق تجارية هامة بين تلك البلاد وتوات .

فإقليم توات بمقاطعاته الثلاث يحتل موقعاً متميزاً مكنه من الاتصال بالمناطق المجاورة من كل الاتجاهات؛ فقد شكل عبر تاريخه محطة رئيسية على طريق القوافل التجارية خصوصاً بعد تراجع الطريق الصحراوي الغربي الرابط بين مراكش وغانا والمعروف بطريق لمتونه؛ نتيجة سقوط مملكة غانا وقيام مملكة مالي في ق7هـ/ 13م وبروز مدينة تنبكتو كعاصمة تجارية في الضفة الجنوبية، فأصبح لزاماً على القوافل المتجهة جنوباً المرور بتوات وهو ما ساهم في تطورها وعمارتها. (جعفري، 2016، صفحة 8)

وقد ساهمت كتابات بعض المؤرخين المغاربة والرحالة وحتى العلماء الوافدين للإقليم في نشر اسمه وتداوله على نطاق واسع فتضاعفت اهميته وزادت الرغبة في سبر اغواره، ومن دون شك ساهم تحسن الأوضاع الاقتصادية أيضا و البعد عن الصراعات في الشمال في تطور المنطقة وازدهارها من جميع النواحي بداية من ق9هـ /15م واستمر الوضع إلى غاية نهاية ق13هـ/ 19م.

3/ توات في وصف الكتاب و الرحالة المغاربة:

3- 1 - ابن بطوطة(ت779هـ/1377م):

يُعد ابن بطوطة أَقدم من قَدم لنا بعض المعلومات عن الإقليم في طريق عودته من رحلته الشهيرة إلى بلاد السودان(التعليق رقم:6) بداية (ق8هـ /14م)؛ إذ استعد هو ومن معه لعبور صحراء شاسعة لا عمارة فيها ولا ماء للتزود والإعداد، واضعين الوصول إلى توات هدفاً يرجون تحقيقه؛ فالوصول إليها علامة على سلامة القافلة وكانت باباً من أبواب المغرب وإيذاناً بولوج تراب المغرب الأقصى. (بلاطش، 2017، صفحة 9)

فخرج من تكدا إلى توات يوم الخميس 11 شعبان 754هـ وحمل معه زاداً يكفيه سبعين ليلة حيث قال: «...إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، وإنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب» في قافلة كبيرة فيها أحد الفضلاء

يسمى "جعفر التواتي" وقاضي تكدا الفقيه" محمد بن عبد الله" وعدد كبير من الخدم حوالي 600 خادم. (بطوطة، 1997، صفحة 236)

حط ابن بطوطة رحاله بواحة "بوده" من توات الوسطى، أقام فيها بضعة أيام وذكرها واصفا معالمها الجغرافية وأهم مظاهر الحياة فيها: « ثم وصلنا إلى "بودا" وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ، وتمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب »، لا سيما من مدينة مراكش المغربية.

ويضيف قائلاً عن طعام أهلها: «... و أكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم يختزنوه كما يختزن التمر، ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد» (بطوطة، 1997، صفحة 236)، فالطبيعة الجغرافية أثرت سلباً على الزراعة فلا يكاد ينبت في المنطقة إلا النخيل و بعض الأشجار القليلة لأنها ذات سباخ ورمال كثيرة و رياح وحرارة.

ومما يجلبه أهل توات إلى بلادهم ما جادت به منطقة "كاهر" من بلاد السلطان الكركرى من لحوم الأغنام، وهي ليست بعيدة عن"تكدا" في أرض مالي فيقول: « ... وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم و يقددون لحمها و يحمله أهل توات إلى بلادهم»(بطوطة، 1997، صفحة 236)

إن ما جاء في رحلة أبن بطوطة حول توات يؤكد لنا عنايته الكبيرة بالنواحي الاقتصادية في مشاهداته ودقة ملاحظاته حولها أكثر من غيرها؛ فذكر ما تختص به واحة "بودة" من منتجات زراعية ومصادر بعض سلعها، دون أن يفوت الإشارة إلى الطريف منها وهو الجراد الذي يؤكل عندهم ومتى يصطادونه وحجم مخزونه، كلها إشارات عن اجتياح الجراد المتكرر للمنطقة في تلك السنين، وقلة تنوع مصادر الغذاء ما جعل قاطنة الإقليم يلجئون إلى استهلاكه، خصوصاً وأنه يقع في قلب

الصحراء و تبعده الأمصار بمسيرة الشهر وأكثر ما يتطلب التكيف مع ما هو موجود بالدرجة الأولى.

وقد تزامنت الرحلة مع قدوم نفر من قبائل "بني عبد الواد" إلى توات و بالضبط واحات "تسابيت" بعد أن اسقط سلطان فاس عاصمتهم تلمسان 753هـ/1352م هروباً من جوره حيث قال: « وسرنا في بلاد هقار شهرا ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فاخبرونا بأخبار بلادنا، وأعلمونا أن "أولاد خراج" و"ابن يغمرو" خالفوا وسكنوا "تسابيت" من توات فخاف أهل القافلة من ذلك» (بطوطة، 1997، صفحة 237)فهي إفادة تاريخية مهمة عن القبائل التي توطنت بعض قصور توات وعن أصلها وسبب قدومها.

ولعل قِصر مدة إقامة ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) في الإقليم واقتصارها على واحة "بوده" بتوات الوسطى جعلته يشير إلى ملاحظات محدودة شدت انتباهه ويقتصر على مشاهداته دون غيرها، واصفاً بعض جوانب النشاط التجاري وما فيها من سلع محلية و مستوردة وسبل العيش بأمانة وصدق، مشيراً في الوقت ذاته إلى واحات "تسابيت" من إقليم قورارة التي سرد بعض أخبارها.

2.3 ابن خلدون(ت808هـ/1406م):

لم يزر المؤرخ ابن خلدون إقليم توات كابن بطوطة لكنه يُعد مصدر اً آخر أشار إلى هذا الحيز الجغرافي بشكل مفصل، حيث جمع معلومات كثيرة عنها في ديوانه مستندا في ذلك الى من سبقه في العناية بهذا المجال، كما أضاف ما سمعه من رجال ثقة تحدثوا إليه وأفادوه بما عرفوا عن المنطقة وجغرافيتها وتاريخها وعاداتها وسياسة حكامها وتقاليدهم.

فقد أعطى فكرة واضحة عن جغرافية الإقليم و تموقع بعض قصوره؛ فيذكر في تاريخه اسم توات على أنها المقاطعات الواقعة بمحاذاة نهر كبير ينحدر من ناحية المغرب إذ قال: «.. و ينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ينحدر ذاهباً إلى

القبلة مشرقاً بعض الشيء، ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهي إلى بودا ثم بعدها إلى تمنطيت،.... ثم يمر إلى أن يصب في القفار، ويروغ في قفارها ويضور في رمالها، ....و في شرق بودا مما وراء العرق قصور تسابيت من قصور الصحراء، وفي شرق تسابيت إلى ما يلي الجنوب قصور تيكورارين تنتهي إلى ثلاثمائة أو أكثر في واد واحد ينحدر من المغرب إلى المشرق، و فيها أمم من قبائل زناته»(ابن خلدون، 2000، صفحة 79)

وعلى غرار "تمنطيط" و "بودا" فقد استهوت مثيلاتها من قصور تيكورارين ابن خلدون المولع بالعمران والعمارة فأفرد لها مقطعا آخر جاء فيه: « ... قصور تيكورارين و هي كثيرة تقارب المائة في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق واستبحرت في العمران وغصت بالساكن».(ابن خلدون، 2000، صفحة 68)

مما يعطينا فكرة حول أهمية موقع الإقليم كمحطة في طريق القوافل التجارية، وحجم ساكنته وأصولهم في عصر "ابن خلدون".

كما أشار في غير موضع من كتابه إلى أهم المجموعات البشرية التي سكنت توات؛ فذكر أن البربر من سكان الصحراء الأوائل في قوله « ... من قبائل مطغزة أيضا بصحراء المغرب كثيرون تركوا بقصورها واغتر سوا شجرة النخيل على طريق العرب» (ابن خلدون، 2000، صفحة 645)، وأضاف في مكان آخر إلى أن توات توطنها قبائل زناته: « اختطها الزناتة بالفقر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم جودة ثم تمنطيط ثم واركلان ثم تسابيت ثم تيكورارين شرقاً، وكل واحد من هذه وطن منفرد، يشمل على قصور ذات نخيل و أنهار و أكثر سكانها من زناته ».(ابن خلدون، 2000، صفحة 79)

وما يؤكد ما ذهب إليه "ابن خلدون"إلى أن وجودهم يرجع لفترات سابقة أي قبل قدوم الإسلام للإقليم هي النقوش التي عُثر عليها في مناطق عدة منه.

كما ذكر قبائل العرب الذين يرجع تاريخ وصولهم إلى توات منذ قدوم الفاتح العربي "عقبة بن نافع الفهري" إلى بلاد المغرب وتوافد القبائل العربية إلى الصحراء، فدخلوا إقليم توات؛ وخير دليل على وجودهم طبيعة الحياة التي سادت الإقليم من حروب مستمرة فيما بينهم كالتي سادت بين العرب، و هذا ما أكده ابن خلدون في قوله: « ... وبينهم فتن وحروب على رياستها ...»، وكان أهم تلك القبائل أولاد محمد، الخنافسة، أولاد طلحة، أولاد غانم وغيرهم.(الكعبي، 2016، صفحة 82)

وأوضح "ابن خلدون" كذلك مساهمة هذه القبائل في خدمة التجارة عبر الصحراء الكبرى أدلاء أو حراس مقابل ما كانوا يأخذونه من ضرائب تدفعها لهم القوافل.(الكعبي، 2016، صفحة 82)

إلى جانب هذا فقد دون لنا "ابن خلدون" الظروف السياسية ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية آنذاك؛ فقد كانت أجزاء توات الثلاثة منفصلة عن بعضها البعض كل منها يتمتع بسلطته الخاصة، و"تنمطيط" بمثابة عاصمة الإقليم السياسية والإدارية و أهم مدن توات عامة؛ لذا أفرد لها وقفات كثيرة نظراً لأهميتها الاقتصادية أيضا إلى غاية القرن العاشر الهجري، لما انتقلت عاصمة توات إلى "تيمي" بسبب التعرض لهجمات الأهالي المتكررة لتأثرهم بحياة البداوة العربية.(الكعبي، 2016، صفحة 82)

ونظراً لبعد توات وقلة مواردها فقد كانت تبعيتها لحكام المغرب ضعيفة، مما استوجب من أغلب الحكام لفرض سيطرتهم عليها استخدام عشيرة المعقل لهذا الغرض وهو ما ذكره "ابن خلدون" بأن الأمير "أبا علي" صاحب سجلماسة عمل ذلك بقوله: « واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات و تيكورارين وتمنطيت» (ابن خلدون، 2000، صفحة 68)

وهو ما جعل أهالي توات بعيدين نوعاً ما عن تسلط الحكام وظلمهم و قلة دفعهم للمغارم حيث قال: « ...وبُعداً عن هضيمة الأحكام وذل المغارم». (ابن خلدون، 2000، صفحة 68). غير أنهم وقعوا تحت سطوة الأعراب المتواجدة في أطراف الإقليم من المعقل و بني عامر حسب ما ذكره مؤرخنا، وكانت تلك القبائل تخضع في بعض الأحيان إلى الدول التي قامت في شمال الصحراء الكبرى لكي تؤمن لها سلامة الحركة التجارية.

وعن الجانب الاقتصادي ذكر "ابن خلدون" أن الزراعة كانت مهنة الأغلبية من سكان توات: « وأكثرهم معاشهم من فلح النخل»(ابن خلدون، 2000، صفحة 29)، و وصف نظام الفقارة لسقي المزروعات أفضل وصف، معبراً عن براعة الإنسان التواتي في حفرها مؤكدا في الوقت ذاته أنه لا مثيل لها في باقي مناطق المغرب الإسلامي فقال: « و في هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ووارکلا وريغ». (ابن خلدون، 2000، صفحة 29)

وما زاد في شهرة إقليم توات وعاصمته "تنمطيط" وقوعه على مفترق الطرق المؤدية إلى الحج، فضلا عن موقعه الذي يتوسط عدد من طرق التجارة التي تربط أسواق شمال إفريقيا بجنوبها (عطلي، 2017، صفحة 249)؛إذ مثل منذ فترة مكان راحة للتجار وتزودهم بالبضائع المتنوعة القادمة من مختلف المناطق؛ وعن بضائع التواتيين فكان يُباع جزء من فواكه إقليمهم إلى بلاد السودان وفي هذا الصدد ذكر "ابن خلدون" أن : « فواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات و تكدرارين ووركلان».(ابن خلدون، 2000، صفحة 69)

ويعود سبب ذلك إلى التبادل التجاري والتهافت على سلع توات لرخص أثمان منتجاتها ووقوعها على طريق القوافل، كما أن هناك إشارة إلى أن كمية الزراعة تكفي لسد حاجة سكان الإقليم وما فاض عن ذلك ينقل إلى بلاد أخرى، و

أن حاجة سكان توات إلى بضائع أخرى دفعهم إلى تصدير إنتاجهم من الفواكه ليأتوا بما يحتاجون إليه من سلع ومنتجات كالزيت والزيتون الذي لا يزرع عندهم.

وبالجملة أورد لنا المؤرخ "ابن خلدون" الأهمية التاريخية لإقليم توات في مظهرين بارزين أحدهما: **محلي** يتمثل في العمران الذي يعتبره أساس الحضارة؛ والثاني **إقليمي**: يتجلى في كونه همزة وصل بين المغرب و السودان، و يبرز ذلك في قوله :« وتسمى وطن توات و فيه قصور متعددة تناهز المائتين أخذة من الشرق إلى الغرب و أخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران، وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد».(الكعبي، 2016، صفحة 86)

3 – 3/ الحسن الوزان (ت957هـ/1550م) (التعليق رقم:7)

يعتبر منهج المعاينة و الملاحظة الشخصية مصدراً مهماً في البحث الجغرافي بشقيه الطبيعي والبشري، فبعد مرور أزيد من قرن ونصف عن رحلة ا"بن بطوطة" إلى إقليم توات جاءت رحلة الجغرافي الشهير "الحسن الوزان" مع بداية العصر الحديث؛ وبالضبط إلى منطقة تينجورارين التي حط بها الرحال سنة 1511م؛ واصفاً جغرافيتها ومسالكها وأحوال قاطنيها، موثقاً لملاحظات مهمة عن الجانب الاقتصادي و المعيشي؛ فنجده يشاطر كثيراً بل ويؤكد ما ذكره "ابن خلدون" في عمارة تيكورارين وتعدد قصورها قائلا: « منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، تحوي خمسين قصراً و أزيد من مائة قرية منتشرة بين حدائق النخيل» (الحسن الوزان، 1983، صفحة 133)، ويبدو من التعداد الكبير للقصور والقرى آنذاك أن "الحسن الوزان" يشير لإقليم توات ككل وليس منطقة قورارة فحسب.

وفي مكان آخر صور أراضيها قائلاً: « أنها صالحة للزراعة لكن يلزم سقيها بماء البئر وتسميدها بالسماد لأنها جافة وهزيلة جدا». (الحسن الوزان، 1983،

صفحة 133)موضحاً تهافت أهل تيكورارين لإيواء الغرباء في منازلهم بدون أجر فقط ليحصلوا على سماد الخيل وغيره .

ووصف سكانها بالأغنياء فقال: « ...وسكان هذه المنطقة –يقصد تيكورارين- أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرا بسلعهم إلى بلاد السودان». (الحسن الوزان، 1983، صفحة 133)

ويظهر من كلامه أن ما ساهم في غنى أهل تيكورارين هو نوعية السلع التي كانوا ينتجونها ويصدرونها إلى بلاد السودان مثل الزجاج والحديد والشب الأحمر وجلود الحيوانات والفواكه وغيرها، أو لأن قوافل تجار بلاد المغرب الإسلامي و تجار بلاد السودان تجتمع في توات، فتقام هناك أسواق كبيرة يستفيد منها الكل ما جعل أهلها يعيشون في رخاء ونعيم.

ومن بين المواد الغذائية التي كان يبيعها أهل تيكورارين اللحوم وذكر أن أسعارها مرتفعة : « واللحم مرتفع الثمن...فلا يوجد سوى بعض الماعز الذي يربى من أجل اللبن» (الحسن الوزان، 1983، صفحة 134)و أرجع سبب ذلك إلى عدم وجود الماشية عندهم من جراء جفاف الإقليم، ولهذا تراهم يشترون لحم الجمال: « ويؤكل لحم الجمال التي تشترى من الأعراب الواردين على الأسواق التي تقام بهذه المنطقة، وهي جمال معطلة لم تعد صالحة للركوب» (الحسن الوزان، 1983، صفحة 134)

فجاء وصفه لهذا الغذاء" بالبائس" لوجود الشحم المملح فيه غالب الأحيان، الذي يأتي به تجار فاس و تلمسان وتحصل لهم منه أرباح كثيرة .

ولم يغفل الجغرافي والرحالة "الحسن الوزان" عن ذكر أحوالها الأمنية وتوفر الأمن بها خاصة بالنسبة للأجانب الذين يجدون فيها كل الاحترام والعناية، ويؤكد هذا الطرح قوله عن أهل توات: « وكثيراً ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون، إلا أنهم لا يمسون الغرباء بسوء». (الحسن الوزان، 1983، صفحة 134)

ومن الإفادات التي تحدث عنها أثناء زيارته وجود جاليات يهودية في توات وتيكورارين؛ فذكر غناها ونفوذها التجاري في المنطقة، إلى أن تدخل أحد الفقهاء من تلمسان دون أن يشير إلى اسمه الذي أمر بطردهم و نهبِ أموالهم في المنطقة وهو الشيخ "محمد بن عبد الكريم المغيلي" (جعفري، 2016، صفحة 65) التواتي قراراً التلمساني مولداً(ت:909ه/1503م) حيث قال: «... كان بعض اليهود الأغنياء يقيمون بتكورارين، ثم تدخل أحد فقهاء تلمسان فأدى ذلك إلى نهب أموالهم وتقتيل معظمهم من طرف السكان...» (الحسن الوزان، 1983، صفحة 134)وكان هذا سنة 891ه/1488م. فالإمام المغيلي رحمه الله لم ينهب أموالهم بل أثار نازلة فقهية ردَّ عليها معاصروه من فقهاء تلمسان وفاس وتونس لما رأى الصنيع المعهود لليهود؛ من تعدي وطغيان وتمرد على الاحكام الشرعية وتحكم في الأهالي واستغلالهم في شتى المجالات.

3- 4 العياشي(التعليق رقم:8)

يعد "أبو سالم العياشي" واحداً من أبرز فقهاء المغرب الاقصى الذين مروا بتوات في رحلته للحج خلال القرن 11ه/ 17م، وخصَّها بوصفه الذي لا يقل أهمية عن وصف سابقيه استطعنا من خلاله أخذ فكرة عن الحياة العامة والدينية والاقتصادية في الإقليم خلال القرن 17م، من ذلك وصفه لأول عمالة في توات قرى تسابيت، إذ مكث بها أياما صور لنا الحياة التجارية بها وبالضبط سنة1072ه/1661م بالمزدهرة، وأن أهلها أصحاب تجارة ((وغالب أهلها عوام أهل تجارة)) (العياشي، 2006، صفحة 79)

لم يختلف ما سبق ذكره من وصف لأخر قرى تينجورارين نحو ورقلة وهي أوقروت: ((ونزلنا قرية يقال لها أولاد محمود وهي من قرى الدغامشة ثم ارتحلنا منها ونزلنا ببلاد اوكيرت عشاء، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم وهي معدودة من

بلاد تجورارن؛ اشترى الناس منها ما احتيج إليه من الزاد إلى بلاد واركلا وأقمنا بها يومين و بدلنا من الأباعر ما ضعف.)) (العياشي، 2006، صفحة 79)

واهتم كثيرا بأسعار البضائع؛ وذكر بأنها رخيصة في توات سيما إذا علمنا أن العملة المتداولة هي الذهب و ثمنه في توات أرخص من بقية الأقاليم و المدن المغربية و غير المغربية مما أسهم في قضاء الحجاج و التجار وقتا أطول لتصريف الذهب اللازم في حجهم و تجارتهم (الكعبي، 2016، صفحة 91)فيقول العياشي في بقائه في توات ستة ايام: ((و سبب إقامتنا في هذه البلاد لهذه المدة أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فان الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع و التمر ويوجد فيها من البضائع و السلع التي تجلب من هناك شيء كثير))(العياشي، 2006، صفحة 79)

وتعرض لتوات كسابقيه بأنها مجمع للقوافل من بلاد السودان الغربي قائلا: ((و هذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من تنبكتو ومن بلاد اكيدز من أطراف السودان)) (جعفري، 2016، صفحة 68)، و عن أهم المنتجات التي تعج بها أسواقها الكبيرة يضيف: ((وكانت أهم تلك البضائع و السلع التمور والأنعام و مختلف أنواع الملابس وريش النعام والصمغ العربي والتبغ الفلفل والحناء والنحاس وغيرها من السلع المتنوعة.)) (العياشي، 2006، صفحة 82) منها ما هو محلي، والأخر يجلب من مناطق مختلفة على غرار المغرب و السودان.

إن مكوثه قرابة أسبوع في واحات تسابيت جعلته يتعرف على أشياء كثيرة عن الإقليم؛ من بينها ما دونه عن النازلة التي صادفته حول بيع مياه الفقارة، فأعجب بهذا النظام الذي نسبه إلى نظام الخطارة ببلاد مراكش؛ فهو يسمح بوصول الماء إلى الاجنة والمزارع ويجزءا جزاء كثيرة بالأيام وقد يجزأ اليوم الواحد بأجزاء كثيرة فتباع تلك الأجزاء. دون أن يفوت ذكر العملة المتداولة: ((وعدد المثقال

عندهم أربعة وعشرون موزونة ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة)) (العياشي، 2006، صفحة 82)

هذا ولم يغفل العياشي عن عادة أصحاب ركب الحجيج في زيارة رجال الدين والأولياء و مقاماتهم للتبرك والدعاء وكذا كبار أهل البلدة و علمائها عبر كامل خط الرحلة. وكان الأمر ذائعاً في بلاد المغرب عموما؛ فيذكر ذلك عند نزولهم بأول قرية من قرى تسابيت: ((.... وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيا و ميتا سيدي محمد بن الصالح المعروف بعريان الرأس تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين دفين مكناسة بمغربنا)).(العياشي، 2006، صفحة 82)

ونجده يتأسف في موضع آخر عن عدم قدرته على زيارة الشيخ سيدي عبد الله ابن طمطم المعروف (بوسبع حجات) باوقروت الذي تؤثر عنه كرامات كثيرة: ((وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد اوكرت و نزلنا بقرى الدغامشة قرب زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم فلما ارتحلنا ذهب أمير الركب مع بعض أصحابنا لزيارته و لم تتيسر لي زيارته لان الركب عدل عنه يمينا و أنا لا اقدر إذ ذلك على المشي كثيرا راجلا و البلاد ذات رمل وقد أثنى لنا أصحابنا عنه كثيرا وأنه من أهل الخير والصلاح والدين يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيها دواء..)) (العياشي، 2006، صفحة 83)

ويضيف قائلا: ((..... ولم نلق هناك أحدا ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح ولا من أهل العلم و الفلاح)).(العياشي، 2006، صفحة 83) وهو ما كان يحظون به بعض الحجاج في طريقهم إلى الحج آنذاك؛ بمقابلة السلاطين ووزرائهم والالتقاء برجال العلم والثقافة والوجاهة وهو ما يزيدهم خبرة وبعد نظر وتألقا فكريا واجتماعيا (الكعبي، 2016، صفحة 93)، لهذا تأسف العياشي لعدم ملاقاته أي من هؤلاء هناك(تسابيت) .

ومن عادة الرحالة في سفرهم أنهم يدونون أخبار الطريق والمسالك لينتفع بها غيرهم من بعدهم؛ فنجد العياشي ركز في رحلته على وصفٍ صغير لبعض مسالك توات نحو ورقلة ثم طرابلس ثم مصر وبيت الله الحرام؛ مشيرا الى أهم قرى توات الواقعة على هذا الطريق و كيف أنها تتوفر على الماء و الكلأ وسبل الراحة؛ تقصدها جل القوافل للميرة(جلب الطعام) وحتى المرعى للإبل كالذي تحدث عنه في نزوله تسابيت: ((و بخارج البلد مرعى حسن للإبل صلحت فيه ابل الحجاج أيام الإقامة)) (العياشي، 2006، صفحة 80) وعن وادي مكيدن يضيف: ((أخذنا على رق وادي ايمكيدن ومعاطن المياه كثيرة في هذا الوادي؛ قل ما يخلو يوم من منهل؛ وماؤه عذب غزير ويقول فيه أعراب ذلك البلد:

واد امكيـدن ما نعطش فيـه *** كل يـوم نجيء على مـا.)) (العياشي، 2006، صفحة 82)

مؤكدا على أن أغلبها تم دفنه من قبل أولاد محمد عرب توات خائفين من عدوهم من أولاد سعيد أن يغيروا عليهم، ومع ذلك فهو طريق آمن ومناسب.

فالعياشي اتخذ طريق توات في سفره إلى الحج مع حجيج بلاده منطلقا من سجلماسة رغم وجود طريق بنفس المستوى شمالا أقرب من طريق توات،نظرا لتوفر هذا الأخير على الأمور الأساسية واللازمة للركب؛ ولكثرة الواحات به مما يوفر محطات منتظمة في الطريق للراحة، وهو ما ينطبق على ما ذهب إليه في وصفه لقرى و بلدات توات.

5-3 ابن الدين الأغواطي:

يعتبر الرحالة "ابن الدين الأغواطي" المنحدر من مدينة الأغواط الوحيد الذي استطاع أن يصف لنا الإقليم خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر(يرجح تاريخ كتابته للرحلة سنة 1829م). ويبدو أنه عرج عليه وهو في طريق عودته من السودان أو غدامس الليبية التي وصفها هي أيضا بوصف دقيق يوحي بأنه زارها.

فحجم مخطوطه البالغ أربعة عشر صفحة يحوي معلومات جغرافية وإقليمية هامة عن المدن والمناطق التي زارها بما فيها إقليم توات الذي وصله على طريق المنيعة كما ذكر: « والمسافة بين المنيعة وأوالن مسيرة، وفيها آبار وتمر، وتقع هذه القرية في الصحراء ومبنية بالطين والسكان يتكلمون العربية » ويضيف: « ومن أوالن إلى الأحمر مسافة يوم وفي ذا المكان بئر عمقه حوالي 30 ذراعا» (سعد الله، 2007، صفحة 249)، كما ذكر المسافات بين كل بئر وآخر، ما يوحي باستخدام الطريق وحيويتها بين توات ومدن الشمال إلى ذاك الوقت وتوفرها على الأمن.

فالرحلة كنص تاريخي هامة جداً كما ذكر مترجمها سعد الله أبو القاسم؛ فهي تحوي معلومات مفيدة في جوانب متعددة، وهو ما أكده وصفه الدقيق لواحة تميميون بقورارة إذ قال: « بلدة كبيرة ولكن ليس لها أسوار تحميها، لأن منازلها جميعا متراصة، ولها سوق عظيم؛ وفيها التمر بالإضافة إلى غيره من الثمار، وفيها مياه غزيرة ويوجد فيها أيضا الشب الأحمر ، وأهلها يتكلمون البربرية، وأغنامهم مثل غنم السودان مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز ولها أذناب طويلة».

ويضيف أيضا: « وتوجد فيها الخيول بكثرة، ويصل الماء إلى وسط البلدة حيث يحضرونه في الأنابيب ولها سوق يباع فيه العبيد، وتراب الذهب بكميات كبيرة ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية، ويختلف لون بشرة السكان فهناك البشرة البيضاء والحمراء والسوداء، وهم يلبسون الثياب الصوفية والقطنية مع ساي أسود اللون..... وأهلها يملكون قطعان كبيرة من الماشية و للطوارق تجارة معهم». (سعد الله، 2007، صفحة 25)

ووصف منازلها ومعالمها الدينية وتدين أهلها في قوله: « ومنازل تيميمون مبنية بالطين أو الطوب، ولها أربعة مساجد ....وأهلها مسلمون صادقون يؤدون الصلاة و يدفعون الزكاة و يقرؤون القرآن» (ابن الدين، 1830، صفحة 96) كما أشار إلى واحة "قورارة " التي تبعد عن تيميمون مسافة يوم وذكر لغة أهلها و لباسهم

وعملتهم : « القورارة ....و تضم حوالي عشرين قرية جميعها تسقى بالماء عن طريق القنوات و يلبس السكان ثياباً من الساي الأسود ومن الصوف، و لغتهم هي البربرية ولونهم يميل إلى السواد، والعملة المتداولة هي عملة فاس، وفي الغرب من القورارة وعلى مسافة عشرين يوماً تقع شنقيط»(ابن الدين، 1830، صفحة 96)

وما لاحظناه أن كلمة "اللغة البربرية" تكررت كثيراً في كتابة "ابن الدين" لرحلته وهو ما يمكن إرجاعه لسبب تحريره لها ولصالح من؟ حيث يشير محررها المساعد العام للقنصل الأمريكي بالجزائر "هود سون"(التعليق رقم:9) في مقدمة الكتاب، أنه كُتب بطلب منه في إطار دراساته عن حدود انتشار اللغة البربرية ونطاقها في الشمال الإفريقي، وأنه دفع ثمن الكتاب للأغوا طي، لذلك لم يهمل هذا الأخير جانب اللغة في وصفه لجل المناطق التي زارها.

وعلى الرغم من إشارة "ابن بطوطة" والعلامة "ابن خلدون" و"ليون الافريقي" لمنطقتي (توات الوسطى وقورارة)في كتاباتهم، إلا أنهم لم يتعرضوا لذكر منطقة تيديكلت رغم حضورها التاريخي هي كذلك.

ولعل هذا راجع إلى عدم جلب قراها النامية اهتمام الرحالة، نظرا لموقعها غير المتمركز على ممرات التواصل مما أدى إلى إهمالها لوقت طويل. (ابلالي، 2013/2012، صفحة 13)

فابن الدين الاغواطي من القلة التي زارت تدكلت ودونت عن بعض قراها، فتعرض لواحة "أولف" وذكر أنها تقع جنوب تيميمون قائلاً : « وتعتبر البلدة الرئيسية في واحة توات ولها نفوذ على جميع المنطقة، والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول وله سلطة توقيع العقوبة والسجن، وهو يمتلك الخيول والرجال، ولكن ليس له خزانة دراهم» (ابن الدين، 1830، صفحة 93) وهي اشارات ضمنية لنوع من الاستقلال الاداري والسياسي لاولف من جهة مقابل تبعية جغرافية اقليمية للواحات التواتية من جهة أخرى (بوسعيد، 2012/2011، صفحة

11)؛ ويضيف قائلاعنها: « وبلدة أولف محاطة بأسوار مبنية بالطين و فيها الماء الوافر والتمر، وللسكان عدد كبير من العبيد، وتقع جنوب أولف قرية طيت وفي غربها تقع قرية أخرى تسمى توات الحناء».

وأفرد وصفاً لواحات توات الحناء قائلاً: « تسمى توات الحناء وتنتج هذه البلاد الحناء والتمر بكميات وفيرة، وجدران المنازل مبنية بالطين، و في توات عدداً من المساجد والسكان فيها يصومون و يصلون و يقرؤون ويزكون، وهم تحت نفوذ سلطان أولف ولغتهم البربرية.» (ابن الدين، 1830، صفحة 94)و يبدو أنه يشير إلى قرى واحة انتهنت "رقان" وما جاورها بأنها كانت خاضعة لسلطان أولف وعُرفت بإنتاجها الوفير لنبات الحناء.

ويفيد هذا الوصف في معرفة الحياة الدينية في المنطقة ومدى تمسك أهلها بأداء شعائر الإسلام والمحافظة عليها من جهة، ومعرفة مستواهم الثقافي من جهة ثانية.

وعن التجارة في إقليم توات تحدث عن أبرز بضائعها وأماكن استيرادها على إثر رحلته من السودان إلى توات فقال: «. ..البضائع المستوردة من السودان هي العبيد وتراب الذهب، و في مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثاله من السلع»(سعد الله، 2007، صفحة 25) وهي سلع شهدت رواجاً كثيراً في تلك الفترة وما قبلها خصوصا تراب الذهب الذي عرف بانخفاض سعره بالإقليم مقارنة بمناطق أخرى.

إن تدوين "ابن الدين الاغواطي" عن الإقليم ووصفه بعض جوانب الحياة فيه ما هو إلا إشارة واضحة على أنه ظل - وإلى هذا التاريخ - يشع بالحياة ومحافظ على مكانته التجارية والثقافية كما كان من قبل؛ له امتداده الجغرافي وتواصله الحضاري والتجاري مع الأقاليم المجاورة.

4. خاتمة:

إقليم توات من أهم المناطق الصحراوية التي جلبت اهتمام الرحالة والكتاب المغاربة عبر العصور رغم الظروف القاسية وصعوبة الأسفار والرحلات نحوه لترامي أطرافه وبعده، حيث ذُكر في عديد كتاباتهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ضمن إطار جغرافي عام يشمل المنطقة بمقاطعاتها الثلاث. مثل عن حق مابين القرنين الثامن والثاني عشر الهجريين مركزاً عمرانياً حيوياً مغموراً وسط الرمال وهذا بشهادة الكتاب والرحالة الذين زاروه (ابن بطوطة، ابن خلدون، ليون الإفريقي، العياشي، الأغواطي).

خلصنا في تتبعنا لأبرز ما كتبه هؤلاء عن الإقليم إلى النتائج الآتية:

1- أن رحالتنا هؤلاء يعتبرون من القلة التي أفادتنا في كتابة تاريخ إقليم توات، فهناك الكثير من لم يعن بتدوين أخبار أسفاره، كما أن قدومهم إلى الإقليم كان له دور في بعث حركة التأليف وجعل التواتيين يحذون حذوهم.

2- مثلت توات عبر تاريخها الطويل حلقة وصل بين الشمال الإفريقي و بلاد السودان الغربي وأهم طريق تسلكه قوافل الحجيج إلى مكة المكرمة، ومحطة للقوافل التجارية الآتية من مختلف الجهات ما جعلها تحظى بعين الإعجاب لدى كل من حط الرحال بها ودون مشاهداته عنها، خصوصاً بعض مدنها التي عرفت ازدهاراً كبيراً كتمنطيط وتسابيت وبوده وغيرها.

3-امتزجت كتابات المؤرخين والرحالة المغاربة حول توات بين الوصف والملاحظة والتحليل والاستنتاج، شكلت لنا إفادات متنوعة ومعلومات هامة (جغرافية، تاريخية، اجتماعية دينية، وثقافية) تناثرت في ثنايا كتبهم ورحلاتهم تغطي حقبة تاريخية طويلة ما يعطي للباحث في تاريخه صورة مكتملة عن تلك الفترة، وفي الوقت ذاته إمكانية الوقوف على أبرز التغيرات والتطورات التي عرفها الإقليم مابين القرنين 8 و 13 هـ / 14 و 19م.

4- الاختلاف الطفيف الموجود بين كتاباتهم وانطباعاتهم حول الإقليم - والتي كلها غنية بالأحداث - مرده إلى الوجهة الحقيقة للرحلة و الغرض منها؛ فهناك من ركز على وصف القوافل والطرق والمراكز التجارية والسلع وأسعارها ومصادرها وهو الغالب لدى من

وصلوا في رحلتهم إلى السودان كالإفريقي والأغواطي، بينما نجد من أضاف إلى هذا المعالم الدينية ورجال الدين وما تعلق بهم من وقائع (رحلات الحجاز) كالعياشي.

5- المادة الاثنوغرافية لهؤلاء عن الإقليم تُعد كنزاً معرفياً ثميناً، لما حوته من وثائق هامة عن تاريخ المنطقة خلال حقب تاريخية مختلفة، يمكن للباحث أن يستفيد منها إذا أقبل على دراستها ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي عند معالجة النصوص، خصوصاً وأن هناك من بين الرحالة من وصفه المؤرخون بالمبالغ في الوصف والنقل.

6- أن ما كتبه هؤلاء الرحالة في رحلاتهم واستكشافاتهم ودراساتهم جاء بشيء من التفصيل ودقة الملاحظة والمعاينة في التعريف بإقليم توات وبأحوال قاطنيه وجغرافيته ومسالكه وثرواته، وهو ما تسابقت نحوها الاقلام الغربية من اجل ترجمته تزامنا وحملاتها الاستكشافية و الاستعمارية، وهي نقطة تستوجب منا دراسة أخرى منفصلة ومفصلة، لإبراز أهم الرحالة والكتاب المغاربة الذين اعتمد عليهم الأوروبيون وعلى وجه الخصوص الفرنسيون للتوغل في الصحراء عامة وفي صحراء الجزائر خاصة في اطار التزاحم على افريقيا.

5. التعليقات:

(1)_ هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ولد سنة 703ه، اهتم بالرحلات والأسفار ودراسة أحوال المجتمعات في البلدان حتى لقب بشيخ الرحالين العرب في عصره حيث قضى ثمان وعشرين سنة من حياته في ذلك لغات الى أن توفي (779ه/1377م)، دون رحلته ابن جزي الغرناطي طبعت لعدة لغات. (محمد حسن، 2012، صفحة 135)

(2) _هو عبد الرحمن بن أبي زيد و لقبه هو (ولي الدين)من أسرة أندلسية الأصل ولد بتونس 732ه/ 1332م اشتهر بتأسيسه لعلم العمران وهو ما سمي بعد ذلك (بعلم الاجتماع) يعتبر من الذين تفتخر بهم الثقافة العربية ذلك أن له آراء رائدة في علم العمران وفي السياسة وفي الحنكة الإدارية. توفي بالقاهرة عام 808ه/1406م. (زباية، صفحة 177)

(3)_ تكدا : تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو، مثلت إحدى المراكز التجارية الهامة انذاك، عرفت بتجارتي الملح و النحاس. (التومي، 2020، صفحة 9)

(4)_ مجموعة من الآبار يصل بعضها ببعض عن طريق ممر يسمى "أنفاد" وتكون المسافة بين البئر و آخر محددة قد تصل إلى 10م او أكثر، يجري الماء فيها من مستوى مرتفع متبع في ذلك انحدار معين حتى يصل الماء سطح الأرض ويتم توزيعه بطريقة خاصة، وتسمى بالمغرب "الخطارة". (ابلالي، و خضراوي، 2012/2011، صفحة 24)

(5)_الحاج ابن الدين :من عائلة ابن الدين بالاغواط لم يكن معروف في وقته، اسمه يدل على أنه أدى مناسك الحج، كان قليل التعلم كثير الاطلاع على حد قول مترجمه سعد الله أبو القاسم، زار عدة أماكن من إفريقيا وبعض العواصم الإسلامية كغيره من حجاج وقته. ورحلته عبارة عن نص مختصر قدمه إلى "هود سون" مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر سنة 1825، وقد دونها في حدود 1829. (سعد الله، 2007، صفحة 278)

(6)_هي الرحلة الثالثة ضمن رحلاته، كانت في غرة محرم سنة 753ه/1352م وهي أطول من الثانية(نحو الأندلس) كان قد كلفه بها السلطان أبو عنان المريني نحو جوف إفريقيا عبر سجلماسة قاصدا مملكة مالي القوية في طريق عودته اتبع خط تكدا والهقار وتوات، دامت إقامته في مالي قرابة 8 أشهر، نال بها لقب شيخ الرحالين للعصور الوسطى. ينظر: (محمد حسن، 2012، صفحة 122)

(7)_ عرف نفسه في مضمون كتابه أنه عربي مغربي ذو تفكير أوروبي (الحسن الوزان، 1983: 6). ينحدر من أسرة الزيات الغرناطية، استقروا بفاس بعد سقوط غرناطة اشتهر بليون الافريقي اسند له سلطان فاس الملقب (بالبرتغالي) عدة مهام سياسية في عديد الدول، تعرض للاختطاف من طرف القراصنة الايطاليون وأنتج في خضم النهضة عدة كتب أبرزها مصنفه الجغرافي(وصف إفريقيا) (زباية، صفحة 135)، (الدمشقي، 2005)

(8)_ أبو سالم العياشي: (1037ه/1627م)هو عبد الله بنمحمد بن ابي بكر العياشي،من ابرز اعلام و فقهاء المغرب و المشرقخلال القرن 11ه تولى التدريس بالمدينة المنورة و كذا بفاس، أدى مناسك الحج عديد المرات توفي سنة(1090ه/1679م)اشتهر برحلته الشهيرة ماءالموائد.

(9)_مستشرق امريكي عمل كمساعد للقنصل العام الأمريكي ويليام شيلر، قدم إلى الجزائر سنة 1825م، نظرا لخبرته باللغات الشرقية و كذا لتدريبه على الخدمات الدبلوماسية وقد بقي فيها إلى سنة 1829م. كرس هود سون جهوده خلال الفترة لإتقان العربية والتركية والتعرف على البربرية والتأكيد على امتداد رقعتها وهو الهدف الأساسي من المخطوط وترجمته .وقد تعرف على الحاج ابن الدين بين سنوات 1825-1829، اشتغل بعدها كاتبا في وزارة الخارجية بواشنطن، قدم أبحاث حول شمال إفريقيا كما أنه ترجم ونشر رحلة الاغواطي. (سعد الله، 2007، صفحة 83)

قائمة المراجع:

1. ابراهيم الدمشقي. (2005). الهجرات و القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى واثرها في نشر الاسلام و الحضارة الإسلامية،. *مجلة دراسات دعوية ، ع9* .
2. ابن بطوطة. (1997). *رحلة ابن بطوطة(تحفة النظار في غرائب الامصار و عجائب الاسفار) م4.* (عبد الهادي التازي، المحرر) المغرب: اكاديمية المملكة المغربية.
3. ابو القاسم سعد الله. (2007). *رحلات جزائرية. تأليف ابن الدين الاغواطي، رحلة الاغواطي الحاج ابن الدين في شمال افريقيا و السودان و الدرعية.* الجزائر.
4. اسماء ابلالي. (2013/2012). *الاسهامات الاجتماعية و العلمية للشيخ محمد باي بلعالم، رسالة ماجستير.* جامعة احمد دراية، ادرار.
5. الاغواطي ابن الدين. (1830). *رحلة ابن الدين الاغواطي.* (هودسون، المحرر) لندن: مؤسسة الترجمة الشرقية.
6. بن محمد الفاسي الحسن الوزان. (1983). *وصف افريقيا ج2* (المجلد 2). (محمد حجي ومحمد الاخضر، المحرر) المغرب: دار الغرب الاسلامي.
7. أحمد بوسعيد. (2012/2011). *الحياة الاجتماعية و الثقافية بإقليم توات من خلال نوزال الجنتوري خلال القرن 12ه/18م.* (رسالة ماجستير،) جامعة أحمد دراية،،أدرار.
8. مبارك جعفري. (2016). *مقالات و ابحاث و تراث منطقة توات.* الجزائر: دار الكتاب العربي.
9. حسيبة بلاطش. (2017). الازدهار الاقتصادي و العلمي لاقليم توات و انعكاسه على التواصل ببلدان الساحل الافريقي ما بين ق16 و20م. *ملتقى وطني حول التواصل الحضاري بين الجزائر و بلدان الساحل بين ق16و20م جامعة حمه لخضر .*
10. زكي محمد حسن. (2012). *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى.* القاهرة، مصر: هنداوي للتعليم و الثقافة.
11. زينب التومي. (جوان, 2020). مراكز الحضارة في السودان الغربي. *افاق فكرية ، ع1* (م6)، صفحة 3الى 15.
12. سميرة دعاشي. (2014-2015). *الاهتمام الفرنسي بالتجارة في الصحراء الجزائرية وافريقيا الغربية مابين1850-1945 ،رسالة ماجستير.* جامعة غرداية.
13. عبد الرحمن ابن خلدون. (2000). *تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدا و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشان الاكبر ج6و ج7.* (تحقيق: خليل شحادة، المحرر) بيروت، لبنان: دار الفكر.
14. عبد القادر زباية. ، *دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب و المسلمين* . الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.
15. عبد الله بن محمد العياشي. (2006). *الرحلة العياشية 1661-1663م(ماء الموائد)* (المجلد ط1). (سعيد ، وسليمان الفاضلي ، والقرشي، المحرر) الامارات العربية المتحدة: دار السويدي.

16. ليلى ، و حبيبة ابلالي، و خضراوي. (2012/2011). *واقع الفلاحة و طرق الري ببلدية تمقطن ،مذكرة لنيل شهادة استاذ تعليم ثانوي.* المدرسة العليا للاساتذة، قسنطينة.

17. محمد الامين عطلي. (2017). الدور الحضاري للطرق التجارية بين الشمال الافريقي و السودان الغربي. *مجلة العلوم الاسلاميةو الحضارة* .

18. هاشم ناصر حسين الكعبي. (2016). اقليم توات دراسة في اوضاعه العامة حتى القرن الثاني عشر الهجري. *مجلة جامعة كربلاء العلمية* .

19. saffroy Bernard .(1994) .*chronique de touat,centre saharien* .ghardaia.